المرتكزات المعرفية لفينومينولوجا متكاملة للتشكيل الاجتماعي للواقع

د/ فتيحة طويل

جامعة بسكرة

الملخص :

يسعى هذا البحث إلى الكشف عن المرتكزات المعرفية، التي يمكن استثمارها في إعطاء نموذج متكامل؛ يتجاوز بعض نقاط الضعف في الأطروحات الفينومينولوجية القائمة على بناءات الخبرة والوعي، وعلى مفاهيم نظرية التشكيل الاجتماعي للواقع ؛ التي تعمل على تحويل المعاني الذاتية لحقائق واقعية موضوعية ضمن محاولة مقدمة لإستدماج مقولات مستوى التحليل بعيد المدى كمفاهيم القوة، وما يمكن أن تحدثه من أثر في سياقات المعنى ؛ وما تلعبه من دور في تشكيل الخبرة المعاشة لفئات اجتماعية عريضة في واقع الحياة اليومية، مما يعطي للنظرية الفينومينولوجية القدرة على تفسير متكامل لجميع جوانب الظاهرة الاجتماعية، وفق ما تطرحه السوسيولوجيا متعددة الأبعاد.

Abstract :

This research seeks to reveal the platform of knowledge, which can be invested in giving a complete model, that overpass some of the weaknesses in the phenomenology theses based on experience and awareness structure, and on the concepts of the Social Formation Of Reality theory; that works to transform the uniteral meanings into a realistic and objective facts, within a fore attempt to integrate sayings of farreaching analysis level as concepts of power, and what an impress can it make in the contexts of meaning; what role it plays in shaping the lived experience for a wide social catergories in daily life, which gives the phenomenology theory the ability for a complete explanation to all aspects of the social phenomenon, according to what the multidimensional sociology poses.

مقدمة:

يلتقي معظم المهتمين بالتطورات النظرية السوسيولوجية في الوقت الراهن، حول فكرة البناء النظري الشامل والمتعدد الأبعاد في علم الاجتماع ، ضمن محاولات توليفية تعمل على تقديم أفكار جديدة، تستمد من الالتقاء والتكامل المفاهيمي بين النماذج النظرية المختلفة، لتتجاوز بذلك الوضع الراهن للنظرية السوسيولوجية، التي تعاني الانقسام والقصور وانحصار قدرتها التفسيرية والمفاهيمية.

إذ توجد هذه النظرة التفسيرية ذات الاتجاه الوحيد؛ في العديد من المنظورات السوسيولوجية كالفينومينولوجية، التي تركز على أولوية الوعي والمعني الذاتي النابع من الخبرة، والمرتبطة بعملية التأويل في بناء وتشكيل المعرفة، متجاهلين علاقة المعنى بالبنى الاجتماعية، وتطور التنظيمات الاجتماعية وتغييرها، ودور القوة في تحديد مسار الفعل ومعاييره، وصناعة المعني ودلالاته أسبابه ودافعيته.

ونتيجة لذلك؛ تسعى هذه الدراسة لوضع مرتكزات معرفية ضمن محاولة توليفية، تعمل على استدماج النظرية الفينومينولوجية، بمتغيرات سوسيولوجية مستقاة من مستويات التحليل السوسيولوجي المختلفة، تزودنا بنطاق تفسيري أكثر كفاءة وثراء؛ ضمن إطار فكري يرتكز على استدماج مفهوم القوة في تشكيل الخبرة المعاشة لفئات اجتماعية عريضة داخل المجتمع، وعلى أهمية التنشئة الاجتماعية ومستويات بناءات المجتمع، في ربط الأفراد بالعالم الذي عملوا على بنائه.

الأمر الذي يطرح أمام النظرية الفينومينولوجية تساؤلات ذات قيمة، حول سياقات المعني المنبثقة عن هذا الفعل، وما يرتبط به من علاقات، مما يقرب مفاهيم الفينومينولوجيا وافتراضاتها من الواقع بكل جوانبه، ويمنحها قدرة تحليلية على المستوى بعيد المدى.

حيث تنطلق هذه الدراسة من الأطروحات الأساسية للنظرية الفينومينولوجية، من خلال قراءة الأفكار والرؤى التي قدمها "**هوسرل وشوتز**"؛ كأهم مؤسسي هذه النظرية في تحليلهم

للواقع الاجتماعي، ومن ثم الوصف الفينومينولوجي المعدل الذي قدمه "**بيرغر ولوكمان**" حول التشكيل الاجتماعي للواقع، معتمدين على محاولة لوضع إطار فكري متكامل؛ ضمن استدماج النظرية الفينومينولوجية بمستويات التحليل السوسيولوجي الجزئي والكلي ، التي تعكس أنماط متكاملة من السلوك، وتبرز قضايا الحياة اليومية للمدينة الجزائرية؛ لتجسيد الحركة التوليفية النظرية.

أولا – الأطروحات الأساسية للنظرية الفينومينولوجية:

تعتبر الفينومينولوجيا (الظاهراتية) Phenomenology، أحد المنظورات الأساسية في التحليل السوسولوجي قصير المدى Micro sociological Analysis ، حيث تركز أطروحاتها الأساسية على بناءات الخبرة والوعي؛ كوسيلة لاستخلاص ما نلاحظه في الواقع، وفهم لجوهر الأشياء وتحليلها، من خلال دراسة السلوك الإنساني وتحليل المعاني وأنماط المعرفة، ودراسة علاقات التفاعل ونوعية المواقف والذات والآخرين، وقدراتهم الشخصية التي تنطبع من ذاتهم الخاصة حول حقائق الأمور والظواهر الاجتماعية المعرفية، وربطها بصورة ذهنية وعقلية ملموسة وبمختلف عمليات الإدراك والشعور، والاعتماد على الأشكال المختلفة للخبرة الذاتية في الحياة اليومية وتحليلها.[1]

حيث ترتبط الجذور العميقة للنظرية الفينومينولوجية بالتقليد الفلسفي، الذي تصاعد في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وارتبط بكل من أدموند هوسرل وهايدجر ، وبونتي، وسارتر ... ولكن **هوسرل Edmund Husserl** كان أكثر فلاسفة الظاهراتية إسهاما في تطوير المنهج الظاهراتي، الذي يرى أن حقيقة الواقع يظهر في الوعي والتأملات والتطورات المرتبطة بذات الإنسان، التي يحملها ويشكلها للواقع الاجتماعي، بواسطة الحواس كحقيقة عقلية ممثلة بالوعي[2]، ضمن نظريته في الحدس التي أقامها على أنقاض أبنية نظرية الإدراك الحسي التقليدية، التي قدمها ديفيد هيوم وجون لوك، ليتم من خلال هذه الأبنية النظرية المنطقية، إستدخال العالم في الذات واستخراج الذات من العالم، هذه الفكرة التي سيطورها **بيرغر** فيما بعد إلى بنية محورية في سوسيولوجيا المعرفة . [3]

إذ يظهر الفعل الإنساني في سياق معاني الفاعلين ووعيهم الذاتي؛ بدلا من كونه محصلة مؤثرات خارجية، من خلال إعادة الصلة بين المعرفة العلمية والحياة اليومية، كبديل يطرح ضد الوظيفية التي انفصلت عن نبض الحياة اليومية، مؤكدا أن المعرفة العلمية أصبحت منفصلة عن خبرة الحياة اليومية ونشاطها، وهي المكان الذي تنبعث منه تلك المعرفة أصلا.[4] وذلك من خلال تصنيف الخبرات الشخصية للفاعلين، وتأويلها من أجل فهم فكرة رصيد المعاني المشتركة للواقع، التي يستخدمها جماعة ما لوصف الظواهر المشابهة، بدرجة تكفي لوضعها في نفس المجموعة الوصفية، مركز بذلك على بناء الوعي الذي يتحول من ذاتي إلى جماعي بالتفاعل؛ بقصد كشف جوهر الواقع بناء على عملية تأويل تتشكل المعرفة به[5]، لأنه بحسب هوسرل ليس هناك حقيقة واقعية مستقلة عما يحمله الإنسان؛ لهذا الواقع من معاني تمثل الوعي العقلي به، والذي يتشكل في إطار الخبرات الإنسانية، بمعنى أن العالم الخارجي لا معنى له إلا من خلال وعينا به، باعتباره كون من خلال الوعي لا غير[6]، ومن ثم بوسعنا الاطمئنان إلى العالم كدافع وسبب وحيد لأنه في أذهاننا[7]، مغفل بذلك قضية ماهية الواقع الموضوعي.

ولقد قام "**الفرد شوتز A.Schutz**" بطرح المنطق المعرفي للظاهراتية، باستخدامه تعبير المعاني المحدودة، ليؤكد بأن الناس هم الذين يعطون من خلال **البنذاتية Intersubjectivity** معنى حقيقي للأشياء .هذه المعاني التي تنبع من تجاربهم وليس علم وجود الأشياء هو الذي يكون الحقيقة، ومن ثم فان هذا المصطلح؛ يعبر عن طريقة وصف جريان الحياة اليومية للإنسان، ضمن مختلف التجارب ذات المعنى[8]، وليس لموضوع مادي يشارك الأفراد في صناعته، وفي ضوء ما يعرفونه من خلال الحس البديهي الذي يشكل لدى الأفراد مسبقا حول جميع الموضوعات التي يخبرونها، بدليل أن الفرد يسمع صوت الأخر ككلمات تحمل معاني ذات دلالة تفضي إلى الفهم وليس كصوت مجرد خارجي.[9]

وبهذا يصبح بإمكان الفعل والفعل الاجتماعي أن يحددا الوعي، حيث ينصب اجتماعيا على أفعال الوعي وليس على الفعل عن العالم، والعالم الاجتماعي هو شيء نخلفه سويا

بفعل تشييد ما يدعوه **شوتز** " سياقات المعنى"، التي تمثل مجموعة المعايير التي تنظم بواسطتها مدركاتنا الحسية، وتحولها إلى عالم ذات معنى، وإلى ذخيرة من المعرفة، وهي ليست ذخيرة من المعرفة عن العالم بقدر ما هي العالم ذاته، إنها معرفة مسلم بها نكتسبها بالفطرة، وكل واحد منا ينظم هذه المعرفة على أساس ما هو قائم هنا الآن، أي على أساس ما يفعله بزمان ومكان معينين، لترتيب الحياة الاجتماعية بطريقة موضوعية، تضمن جانب كيفية التخطيط وتحقيق الهدف ، إلى جانب الاختيار الذي يجلب للفرد درجة أكبر من الإشباع والمنفعة، ليتضح في هذا الطرح إستدماج شكل من أشكال نظرية الاختيار العقلاني.(10)

هذا فضلا عن إلقائها الضوء على الدوافع والحوافز السببية، التي تربط بخبرات الماضي والتنشئة الاجتماعية، أو حوافز الغائية القصدية التي سترتبط بتحقيق حالة في المستقبل، الذي يمثل حالة يصعب التنبؤ بها في عالم الحياة اليومية، مما يؤكد أن هناك حدودا لخبرات الأفراد ونطاقا لتفاعلاتهم، فحصيلة المعاني التي يحملونها تتباين حسب ظروفهم التفاعلية، وهكذا تظهر العوالم الفرعية للأفراد ومناطق المعاني المحدودة.(11)

الأمر الذي يتطلب تشكيل عالم يشمل البيئة الثقافية بجانبها المعنوي والمادي، فترتبط تصرفات الفرد بهذا المخزون المعرفي والثقافي للجماعة ، ويجعل الأفراد بعد هذا يمثلون متطلبات الدور، لما يضمن من مستويات وحقوق وما يرتبط به من توقعات.(12)

ومن هذا الطرح تتاح فرصة للنظر بصورة واقعية للفينومينولوجية، التي حاولت أن تعيد الصلة بين المعرفة العلمية وخبرة الحياة اليومية ونشاطها، متجاهلة لعلاقات القوة وما تحدثه من أثر في سياقات المعني، حيث يبتعد شوتز عن خبرات الخضوع والإذلال والظلم والقهر، والاستبعاد الذي يمكن أن ينشأ عن القوة، وإذ نظمنا معرفتنا الحياتية انطلاقا من مشروعنا على حد تعبير شوتز، فإن التساؤل المركزي الذي ينبغي أن يطرح هنا : ما هو مشروع أولائك الذين يعانون من جميع مظاهر الاجحاف الإنساني؟!(13)

لذلك فإن النظرية الفينومينولوجية بصورتها الراهنة ، لا يمكنها أن تستوعب مظاهر إحباطات الناس وأشكال الحرمان الذي يتعرضون له داخل المجتمع، الأمر الذي يتطلب عملية تجسير نظرية الفينومينولوجيا لتشمل قضايا بعيدة المدى تعكس تكامل الفعل والبناء. وهذا ما يمكن الوقوف عليه في الاتجاه الظاهراتي المعدل، الذي يحاول توسيع نطاق الظاهراتية لتشمل نظرية المجتمع.

ثانيا– الفينومينولوجية المعدلة ضمن التشكيل الاجتماعي للواقع:

لقد تطورت النظرية الفينومينولوجية خلال العقود الأخير من القرن العشرين، لتأخذ أبعاد جديدة ومغايرة، وتقدم تصنيفات متطورة للمسلمات والقضايا الأساسية ، التي تقوم عليها الفينومينولوجية كنظرية معاصرة؛ ضمن إسهامات" **بيتر بيرغر P.Berger** و**لوكمان Luckman** في المؤلف المشترك المسوم بـ"**التشكيل الاجتماعي للواقع The social construction of Reality**، الذي يستمد أهميته من تحليل فكرة التشكيل الاجتماعي للواقع، ويجعل هذه الفكرة بمثابة إطار مرجعي لدراسة البناءات الاجتماعية، وفهم وتحليل الظواهر الاجتماعية ومجموعة الأفعال والأدوار، والسلوكيات التي توجد بين الأفراد وفي المجتمعات الحديثة.(14)

حيث يعمل"بيرغر ولوكمان" على توضيح الصورة حول عملية التشكيل الاجتماعي، واعتبارها كعملية ديالكتيكية مستمرة بين الأفراد لإيجادها عن طريق أفعالهم وتفاعلاتهم، وخلق واقع مشترك يتكون من خبرتهم عن الحقائق الموضوعية أو الواقع الموضوعي Objective reality، الذي يرتبط بالنظام الاجتماعي أو العالم النظامي الذي يعتبر نتاجا للإنسانية. إلى جانب المعاني الذاتية أو الواقع الذاتي Subjective Reality، الذي ينعكس من خلال المعنى الداخلي الذي يدركه الأفراد. وهذا ما أشار إليه بيرغر ضمن دراسته حول العرش المقدسThe sacred conopy، ومناقشته لأفكار متعددة ترتبط بالواقع سواء أكان ذاتيا أو موضوعيا، وكيفية تكوين أو ظهور هذا الواقع حسب أنماط معينة من المواقف والعمليات الاجتماعية، كما تعتبر أنماط الواقع مطلبا أساسيا لاستمرارية النظام ككل(15).

و هذا بفضل قدرة الإنسان على إنتاج عالم يجربه بعدئذ على أنه شيء آخر ليس نتاج إنساني، ومؤكدا في لحظتها على أن العلاقة بين الإنسان المنتج والعالم الاجتماعي الذي ليس من إنتاجه علاقة جدلية، وسوف تبقى كذلك، بمعنى أن الإنسان وعالمه الاجتماعي يتفاعلان معا.

الأمر الذي يتطلب البحث في الطريقة التي يتشكل بها هذا الواقع، من أجل المزيد من الفهم الحقيقي والكافي للواقع ككيان مستقلا عن المجتمع، أو بعبارة أخرى، كيف تصبح المعاني الذاتية إدراكا موضوعيا للحقيقة ؟،[16] وفي هذا الشأن يرى بيرغر أن تشييد العالم الاجتماعي يمر عبر ثلاث مراحل أساسية في العملية الديالكتيكية وهي: التشييء Exlernchuzation، والذي يعني أن الأفراد يخلقون المجتمع ويبتدعونه، والموضعة Objectivation وتعني بأن المجتمع يشمل واقعا موضوعيا له نتائج بالنسبة للفرد ، لأنه يعود بالتأثير على مبتدعه، والاستدماج Internalization ويمثل نوعا من التنشئة الاجتماعية التي يتم بواسطتها ضمان شرعية النظام المؤسسي، الذي يضمن وجود استمرارية عملية التشكيل الاجتماعي، حيث يظهر هذا النوع من التنشئة الاجتماعية عن طريق وجود درجة عالية من التساوق بين الواقع الموضوعي والذاتي، وبين الهوية الموضوعية والذاتية، موازية بذلك عملية التنشئة الاجتماعية بالنسبة لبارسونز، والتي يقوم فيها الأفراد بالإستدماج؛ أي يجعلوا خاصتهم الواقع الاجتماعي المموضع، مع نتيجة أن كل واحد تقريبا يمثل ما كان يسعى أن يكون عليه.[17]

وأخيرا توضح نظرية التشكيل الاجتماعي للواقع، أنه يعني انخراط الأفراد في الاستدماج، إذ يتكيفون مع توقعات المؤسسات الاجتماعية الموجودة، ويعيدون ابتداع وضع المؤسسة الاجتماعية في مرحلة التشييء، وما إن تتشيأ فإنها تصبح مموضعة، وما أن تتموضع فإنها تعود بالتأثير على الفرد باعتباره كيانا مستدمجا، حيث يوضح بيرغر ولوكمان، بأن المجتمع نتاج إنساني"التشييء"، والمجتمع واقع موضوعي (الموضعة)، الإنسان نتاج اجتماعي (الإستدماج).

إن هذه المراحل أو العمليات الغنية معرفيا، تجمع بين مزايا الدراسات السوسيولوجية الصغرى والكبرى، لاسيما النظرية الوظيفية، الأمر الذي يظهر في محاولة تركيز كل منها على القيم والأفكار والمعرفة والمعايير، باعتبارها العناصر الأساسية التي تشكل طبيعة النظام الاجتماعي، كما أنها تسهم في عملية التنشئة المستمرة للأعضاء أو الأفراد الحاليين الجدد، ولكن دون استثمارها في فهم وتفسير علاقات القوة وبناءاتها، وما يمكن أن تموضعه هذه القوة وتجعله رائجا للإستدماج، وإذا ما تم التركيز على مؤسسات القوة واحتواء دراسة الظواهر الاجتماعية المعقدة، التي تفاقمت خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، فان الفجوة تصبح أكثر وضوحا ، حيث هناك عمليات إجبار وانتقاء ومعايير مشوهة يجرى إستدماجها. (18)

ثالثا: إستدماج فينومينولوجي لمستويات التحليل المختلفة في الحياة اليومية للمجتمع.

يلاحظ " **أنطوني غيدنز** "**A.Giddens** " أن هناك معضلة كبيرة تواجه الفينومينولوجية، لاعتقاده أن عملية إنتاج عالم اجتماعي منظم وقابل للتفسير؛ لا يمكن أن تفهم ببساطة بوصفها عملا تعاونيا ينفذ بواسطة أنداد، وذلك لأن المعاني ذات الأهمية هي تلك المعاني التي تنطوي على عدم التماثل في القوة. (19)

و بالفعل فإن الحقيقة الواضحة في الطرح السوسيولوجي؛ للنظرية الفينومينولوجية يبين أن ثم خط جدل مفقود، حيث اقتصر الطرح الكلاسيكي على إعادة الصلة بين المعرفة العلمية وخبرة الحياة اليومية ونشاطها، ليحاول الاتجاه المعدل فيما بعد للظاهراتية الجمع بين التحليلين الكلي والجزئي، ويبين السبل التي تتطور بها المعاني العليا للظاهرة، وتشترك فيها الجماعة للتنظيم الاجتماعي، والتي يجري تنشئة أعضاء المجتمع الجدد بناء عليها(20)، متجاهلة علاقات القوة في الحياة الاجتماعية ، وما تنطوي عليه من تأثيرات في سياقات المعنى.

إن إستدماج النظرية الفينومينولوجية لعلاقات القوة، ستكون موجها رئيسا لنظرية ظاهراتية معاصرة، قادرة على تفسير وتحليل أنساق البنى والقوى الاجتماعية ، وتوضيح عمليات إجبار وانتقاء معايير مشوهة يجرى إستدماجها، بالإضافة إلى ما يمكن أن تلقيه علاقات القوة في تشكيل الخبرة المعاشة لفئات اجتماعية عريضة داخل المجتمع ، والتي ستلعب دورا خطيرا في تحليلها للواقع الاجتماعي، كتلك المحاولات المتأخرة التي حاولت تجاوز نقاط الضعف في الفينومينولوجية، والتي ظهرت في دراسة "**سيمون شارلزوورث Cahrlesworth**"، حول ظاهراتية خبرة الطبقة العاملة APhenomenology of working cless Experience ، التي تبين الخبرات الاجتماعية التي تعيشها الجماعات الاجتماعية المهمشة، وخبرات الخاضعين سياسيا، ولمن يفتقدون القوة الاقتصادية... وبالفعل فالفقر والطبقة لهما خطاب وثقافة ضرورة وظروف واضحة لا يخبرها إلا الفقراء، وليس لمعللي السياسة الاجتماعية. وهكذا يتبين دور القوة وهي المسؤولة عن الخضوع والاستغلال الذي يقع على الفقراء، في تكوين خبرة الابتلاء والمقت والاشمئزاز وخيبة الأمل لديهم.[21]

علاوة على ذلك فإنه إذا ما تم اختيار واقع الحياة اليومية كمعبر وممر إبستيمولوجي Gravese epistemolgique، باعتباره يشمل الوجود المعاشي للإنسان بكل جوانب المعاش اليومي الذي ينظمه، ويحدد علاقته مع البناء الاجتماعي الواسع، ومختلف أشكال التبادل سواء كانت المادية أو الثقافية، والتي تساهم في تفاعل الأوساط المعيشية للأفراد، وتسهيل مختلف أشكال التبادل في إعادة إنتاج حياتهم اليومية، التي تستمر في الزمان وتنتقل عبر عوالم مكانية مختلفة للأفراد[22]. ذلك أن مجال الحياة اليومية مجال جد شاسع، ويشير إلى الممارسة الاجتماعية في إطارها الكلي كما يقول "**لوفيفر هنري**" "**H. Lefèvre**" ، والذي يتكون من الفعل والبناء ، أو كما أسماه "**غيدنز** " بالازدواج البنائي أو الهيكلي la dualité Structurelle ، الذي يجعل من المستحيل التطرق إلى الواحد الكلي من دون التطرق إلى الثاني الجزئي والعكس صحيح ، فهي إذن علاقة جدلية متكاملة وشاملة ، فحسب "لوفيفر" فإن الميكرو أو الجزئي يفسره الماكرو أو الكلي، بحيث يستغل هذا

الأخير ضعف ومحدودية الميكرو، لأنه حسب آراء منظري علم الاجتماع متعدد الأبعاد ، أصبحت الأطروحات التي إنبنى عليها المجتمع غير قادرة لوحدها على الأداء بكل ما يفرزه الواقع المعاصر من ظواهر[23]. مما تطلب وضع محاولات توفيقية بين الفعل والبناء الاجتماعيين، من خلال إعادة بناء شبكة المفاهيم والنماذج الخاصة بالبناء والفعل، بهدف تحقيق معرفة موحدة لما هو منسجم وغير منسجم من الواقع الإنساني، وفهم مختلف التنظيمات الاجتماعية، وتجاوز التناقضات المنهجية العقيمة[24] في دراسة الظواهر الاجتماعية.

باعتبار هذه الظواهر الاجتماعية لا تنتمي وبصفة آلية إلى حقل معرفي معين، بل أصبح الفعل والبناء يشكلان شيئين متكاملين، لا يمكن أن يفهم الواحد دون الآخر، الأمر الذي يتطلب العمل على مبدأ علم الاجتماع متعدد الأبعاد، الذي سوف يساعد لا محالة على التوضيح والفهم، خاصة إذا علمنا بأن الواقع اليومي كأحد المستويات الشاملة للاقتراب السوسيولوجي، يعمل على فهم التفاعلات في إطارها الاجتماعي وضمن تطور أشمل، بحيث يكون فيه الواقع اليومي عبارة عن مزيج بين الكلي والجزئي، الذي يفرض مقاربة لعلاقات معقدة ومتشابكة من الاستغلال والحرمان والظلم ... ويكون خبرة لفئات إبستيمولوجية اجتماعية عريضة تم الاقتراب إلى تصوراتها ومساءلة واقعها الذي أعطي للأشياء معانيها ودلالاتها ، ضمن منظور أشمل يبرز فيها تفاعلات الفرد والمجتمع، ليساعد على الفهم الداخلي للظواهر الاجتماعية ، كما يطرحه **جوفمان Goffman**، أو كما يسميه ألفرد شوتز علم الاجتماع من الداخل أو علم الاجتماع الداخلي Sociologie du dedans[25].

حيث سنعتمد على اقتراب ودراسة مجمع المدينة؛ كمجال تمتزج فيه التصورات المشوهة والمتضاربة، للعديد من الأنشطة المتبادلة والخبرات المعاشة التي تشكلها القوة لأطفال الشوارع والأحياء المتخلفة ومرتكبي جرائم زنا المحارم، الذين يتفاعلون من خلال ما يملكونه ويستعملونه من معارف نظرية وميدانية ذات مستوى عالي، يسهمون به في إعادة تشكيل واقعهم، بعدما يميلون إلى إدراك الواقع حولهم بطرق مختلفة ومتفاوتة؛ اعتماد على طبيعة

المهارات والخلفيات التي نشؤوا فيها، والبواعث التي يستهدون بها والمصالح التي يسعون إلى تحقيقها، مراوغين المعايير الاجتماعية؛ ويتجاوزونها من أجل الاستفادة منها، وتكفيها وفق الخيارات العقلانية التي يطرحها واقع الحياة اليومية، وذلك لأن للأفراد القدرة على الفعل الابتكاري الخلاق، لإعادة تشكيل واقعهم على الدوام عبر ما يتخذونه من قرارات وما يقومون به من تصرفات[26]، أصبحت بمثابة نظام يلجأ فيه الفاعلين لاستراتيجيات إنحرافية واستغلالية؛ أشمل وأوسع لتحقيق البناء الاجتماعي العلائقي للقوة، والذي يعبر عن حالة من الاغتراب المتعاكس.

وكمثال على ذلك؛ دراسة الباحثة حول العنف في الحياة اليومية لأطفال أسر العشوائيات الحضرية، والتي أظهرت فيها خبرات الحياة اليومية المعاشة وعالم الحياة المعطى، كما يتجسد من خلال تركيبات من المعرفة، التي يتم تكوينها ونقلها اجتماعيا لحالات من أطفال العشوائيات الحضرية، الذين لهم خطاب وثقافة ضرورة، وظروف واضحة تعمل على تشكيل خبرة العنف وخيبة الأمل جراء الفقر والاستبعاد الذي يقع عليهم، ليقفوا في علاقة جدلية مع واقع هذه العشوائيات الحضرية، باعتبارهم صانعي هذا الواقع ونتاجا له في ذات الوقت، إذ يعيشون في بيئة متدهورة، وأحوال معيشية وصحية سيئة... يعانون منها في بداية أعمارهم كعنف رمزي، ويمارسوها مع نموهم كعنف جنسي مع محارمهم، ويألفوها في حياتهم اليومية كعنف لفظي وجسدي... لتزج بهم فيما بعد في عالم العمالة الهامشية والانحراف والإجرام... ليتعلموا بالخبرة والتقليد والمحاكاة في الحياة اليومية وسط الشوارع، التي تشكل وعيهم بالعنف الذي لا يستطيعون دفعه، فيحملون داخلهم الرغبة على القهر البشري، تحت ستار ضرورات نفسية واجتماعية تبسط أمامهم؛ وكأنها محتمة بل ومفيدة ضد المجتمع فيما بعد، ليتحولوا بذلك من ضحايا إلى فاعلين في عالم العنف. هؤلاء الأطفال الذين تعودوا على سرقة المحلات التجارية، في حي البخاري وزقاق بن رمضان في مدينة بسكرة ، رغم تعرضهم للضرب والإهانة عدة مرات، غير أنهم أصبحوا لا يبالون من المخاطر التي تعودوا عنها، المهم الحصول على المال بأي قوة ووسيلة من الذين يملكون المال، لإعانة الأسرة تارة،

وشراء الدخان وشراء غراء العجلات المطاطية المثقوبة تارة أخري، ليسكروا بها عن همومهم ومشاكلهم وحضهم ...

ليعلن هؤلاء الأطفال عن جريمة الفاعل وقصديه وعيه بذاته وبجريمته. فالنشاط المنظم الذي قام به هؤلاء الأطفال كما بينته الدراسة ، يفترض أن يكونوا واعين وعارفين ولديهم رصيد من الخبرة بعد السرقة الأولى، مما يسهل قابليتهم لامتلاك الوعي وامتلاك المعرفة، وبالتالي امتلاك القدرة على الفعل الإجرامي مرة أخري، عن وعي وعن قصد دون مقاومة، كما تراه الفينومولوجيا. إلى جانب أنه خطاب منفعل في كل محادثات هؤلاء الأطفال، ولغتهم تميل نحو استخدام تعبيرات مادية لأوصاف مجسدة، التي تقرب المعنى بكلمات قبيحة وبعلامات أكبر قبح، من الغضب والحزن والانتقام والسخرية، التي تظهر في ملامحهم، والأكيد أن خطاب هؤلاء الأطفال يتشكل من البناء الأسري والمجتمع، الذي عاشت وتعيش فيه.

هذه الجرائم التي يفقد الباحث أمامها نقاط الاستدلال؛ وتدعوه إلى الانخراط مع العديد من المفكرين وعلماء الاجتماع، وسط جدلية البناء الاجتماعي الأسري تحديدا ومختلف الفاعلين، وأيهما أسبق عن الآخر والأكثر تأثيرا وفاعلية في تنمية هذه الظاهرة؛ بأساليب مباشرة وغير مباشرة، تبرزها الدراسة الميدانية التي قامت بها الباحثة لحالات من زنا المحارم ، تحت عنوان: جريمة زنا المحارم: جريمة البناء الأسري أم جريمة الفاعل ؟.

حيث نجد أحد الحالات التي أجبرت على الفعل دون أن يكون لديها أي قدرة على الاختيار أو المقاومة أو الرفض، الشيء الذي جعل لغتها تميل نحو استخدام تعبيرات مادية لأوصاف مجسدة، والتي تقرب المعنى بكلمات وعلامات من الغضب والحزن والانتقام والسخرية التي تظهر في ملامحها، والأكيد أن خطاب هذه الحالة يتشكل من البناء الأسري والمجتمع الذي عاشت وتعيش فيها هي الأخرى، وإن خطابها يتسم بالصلابة والوقوف كثيرا أمام التفصيلات، كما أنه خطاب يتسم بالعملية والالتواء من أجل تحقيق الأهداف. وفي ظل الظروف التي تعيشها فإنها تطور أسلوب خاص للمقاومة غير المباشرة، التي تتسم بالانتقام

من كل الرجال بممارسة البغاء، والبحث عن الراحة النفسية دون الشعور بالمتعة، واحتقار جميع الرجال وميلها إلى النزعة البطولية في كل مرة كان يضعف أمامها رجل ، متواصلة مع الأحداث التاريخية اليومية؛ عاجزة في الاستمرار مع حياة سهلة ومريحة؛ بعدما حرمت من مصدر الرزق، لتنتهي هذه الفتاة إلى عالم التسول والبغاء والدعارة، حالها كحال العديد من النساء البغايا اللواتي كن فريسة لزنا المحارم. لتتدفق الحياة اليومية لهذه الحالة في مختلف الأماكن، وتتشكل محددات بنائية أقصى وأوسع نطاق قابلة للتغيير في ضوء الظروف المبعثرة، التي حلت بها لتخضع هذه الحياة لازدواجية المصير السيئ وخداع الذات حسب **ما يقول سارتر**. (27)

نتيجة طبيعية لحياة مضغوطة وملغمة بالصراعات والتوترات، التي خلفها البناء الاجتماعي والأسري؛ لما يشيعه من معوقات وخلل في وظائفه، وليعبر عن مدي الاستغلال الذي يمارسه على فاعليه، باختراقه الواقع وألا معقول بجريمة زنا المحارم والسرقة... وهذا ما تشير إليه نظرية الصراع التي تركز على الشعور الشخصي بالحرمان، بما يرغب فيه الناس وما يحصلون عليه، وبين انخفاض المستوى الاقتصادي كحالات من النساء والأطفال الذين يعانون الحرمان من أبسط الأمور، مما يزيد من النزوع نحو الجريمة والعدوان نتيجة الإحساس بالظلم الاجتماعي، وانعدام العدالة الاجتماعية وسيطرة القيم المادية. (28)

و من هذا المنظور تتاح فرصة للنظر بصورة أكثر واقعية لعملية الخبرة، وتكوين المعارف العلمية من واقع الحياة اليومية، بحيث تأخذ بعين الاعتبار مواقع الفاعلين من البنى والمؤسسات القائمة، ومواقفهم من موضوعات القوة وقدرتهم على اتخاذ القرار أو الخضوع له، مما يكون لديهم خبرة معاشة من علاقات القوة، الأمر الذي يجعل النظرية الفينومينولوجية أكثر اتساعا وقدرة تفسيرية، لبناءات الخبرة والوعي المرتبطة بتفاعلات الأفراد مع البناءات المنبثقة عبر الزمن، حيث إن مؤسسة علاقات القوة وما تحمله من دلالات، تمثل مسألة تاريخية تحمل قضايا من تجارب الأفراد وخبراتهم في وجودهم الاجتماعي.(29)

خاتمة:

لقد تم ضمن هذا البحث ؛ إبراز أهم المرتكزات المعرفية للنظرية الفنومينولوجية ، وفق استدراك لأهم أطروحاتها الأساسية، وتوسعاتها التي حملت الاتجاه الظاهراتي المعدل؛ الذي يشمل نظرية التشكيل الاجتماعي للواقع، إلى رؤية قد تكسب نظرية الفيمومنولوجيا طابعا سوسيولوجيا بعيد المدى، ضمن عملية ديالكتيكية تفرضها تطورات الأحداث والظواهر الاجتماعية، التي لا تنتمي وبصفة آلية إلى حقل معرفي معين، والتي تجعل علم الاجتماع متعدد الأبعاد موضوعا لها؛ بتناولها دور البنى والقوي ضمن بعض القراءات الجديدة، التي حاولت تجاوز بعض نقاط الضعف في الظاهراتية، من خلال لفت الأنظار إلى الدور الذي تلعبه القوة تحديدا في تشكيل الخبرة المعاشة، لفئات اجتماعية عريضة داخل المجمع، مؤشرة بذلك إلى الميل لفهم تحولات الوعي المرتبطة بحركة الواقع الاجتماعي، والقدرة على مراقبة الفعل الإنساني الناجم عن وعي تغييري يعرف جيدا أهدافه وحاجاته.

المراجع:

(1) عبد الله محمد عبد الرحمان: **علم الاجتماع التربية الحديثة–النشأة التطورية والمداخل النظرية والدراسات الميدانية الحديثة**، دار المعرفة الجامعية، الأزارطية الإسكندرية، (د.ت)، ص296.

(2) إبراهيم عيسى عثمان: **النظرية المعاصرة في علم الاجتماع**، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان الأردن، 2008، ص240.

(3) علاء جواد كاظم: **التأويل الذاتي للعالم المنعرج السوسيو فينومينولوجي لنظرية الحداثة**، إضافات، المجلة العربية لعلم الاجتماع، العدد 15/ صيف 2011، ص122.

(4) غربي علي: **علم الاجتماع والثنائيات النظرية والتقليدية والحديثة**، مختبر علم الاجتماع للنشر والترجمة، جامعة منتوري قسنطية– الجزائر، 2007، ص235.

(5) مصطفى خلف عبد الجواد: **نظرية علم الاجتماع المعاصر**، دار المسيرة للنشر والتوزيع، الأردن، 2009، ص187.

(6) Husserl, Edmund :Ideas Pertaining to a Pure Phenomenology and to a p Springer, London, Phenomenological Philosophy, Translated by F?kersten, 238.

(7) علاء جواد كاظم: المرجع السابق، ص 123.

(8) ارنفنج زايتلن: **النظرية المعاصرة في علم الاجتماع**، دراسة نقدية، ترجمة محمود عودة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ،1989، ص،291–292.

(9) محمد عبد الكريم الحوراني: **النظرية المعاصرة في علم الاجتماع– التوازن التفاضلي صيغة توليفية بين الوظيفية والصراع**، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2008، ط1، ص37–38.

(10) إيان كريب: **النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس**، ترجمة محمد حسن غلوم، عالم المعرفة. الكويت ،1999 ، العدد244، ص150.

(11) محمد عبد الكريم الحوراني: المرجع السابق، 2008 ، ص38.

(12) إبراهيم عيسى عثمان:المرجع السابق، ص 245– 248.

(13) محمد عبد الكريم الحوراني: **القوة وإنتاج المعنى في الفعل الاجتماعي** ، قدمت هذه الأطروحة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية ، آب 2006، ص27.

(14) ورث والاس، وألسون وولف: **النظرية المعاصرة في علم الاجتماع تمدد آفاق النظرية الكلاسيكية**، ترجمة محمد عبد الكريم الحوراني، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، 2011-2012، ط1، ص459 – 462.

(15) عبد الله محمد عبد الرحمان: **النظرية في علم الاجتماع- النظرية السوسيولوجية المعاصرة**، دار المعرفة الجامعية، الأزارطية الإسكندرية، 2003، ص 233- 234.

(16) بيتر بيرغر وتوماس لوكمان: **البنية الاجتماعية للواقع –دراسة في علم الاجتماع المعرفة**، ترجمة أبو يكر أحمد باقادر، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن،2000، ص32-85.

(17) ورث والاس، وألسون وولف: المرجع السابق، ص465-467.

(18) محمد عبد الكريم الحوراني: المرجع السابق، 2008، ص39.

(19) المرجع نفسه.

(20) إيان كريب: المرجع السابق، ص152.

(21) محمد عبد الكريم الحوراني: المرجع السابق، 2006، ص28.

(22) http//:www:ahewar.org/debat/show.art.asp ?aid=123387

(23) رشيد حمدوش: **مسألة الرباط الاجتماعي وسوسيولوجية الحياة اليومية أو المعاش**، إضافات، المجلة العربية لعلم الاجتماع، العددان 17و18/شتاء وربيع 2012، ص 119 ،120.

(24) فضيل دليو: **علم الاجتماع المعاصر- ثنائياته النظرية والمنهجية- دراسات نقدية** – مخبر علم الاجتماع الاتصال، جامعة منتوري قسنطينة- الجزائر، 2004، ص58.

(25) رشيد حمدوش:المرجع السابق، ص، 117-120.

(26) أنتوني غيدنر: **علم الاجتماع**، ترجمة فايز الصباغ، مركز دراسات الوحدة العربية للتوزيع، بيروت-لبنان ، 2005، ط4، ص159.

(27) أحمد زايد: خطاب الحياة اليومية في المجتمع المصري ، القراءة للجمع والنشر والتوزيع ، دبي الإمارات العربية المتحدة، 1992،ط1، ص68 .

(28) جلال إسماعيل حلمي: **العنف الأسري**، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1999، ص46-49.

(29) محمد عبد الكريم الحوراني: **التفاعل الرمزي ونظرية الاختيار العقلاني المنطلقات المعرفية لنموذج رمزي في الاختيار العقلاني** ، مجلة أبحاث اليرموك سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة اليرموك، 2011، العدد03، ص2207.